مجلة جامعة الخليل للبحوث
المجلد (5)، العدد (2)، ص (57-73)، 2010

الصفحة الإلكترونية للمجلة
http://www.hebron.edu/journal

النقمة على السلطة السياسية في «أدب أبي حيان التوحيدي- نماذج مختارة»

د. عبد الخالق عيسى[*]
جامعة النجاح الوطنية- نابلس

الملخـــص:

يتناول الباحث في هذه الدراسة العلاقة بين التوحيدي والسلطة السياسية الحاكمة، ممثلة بشخصياتها التي اتصّل بها، وأقام في بلاطها، ويحاول الدَّارسُ البحثَ في الأسباب التي أفسدت مزاج الكاتب، وجعلته لا يرى من أهل مجتمعه سوى الأمور المقوتة، ولهذا قرر أن يسلبهم ما كان ألفه لهم من مصنّفات .

ويركز الباحث على كتاب «أخلاق الوزيرين» بوصفه أفضل الكتب التي أفرغ فيها الكاتب تداعيات تجربة عاشها في بلاط الوزيرين «الصاحب بن عبّاد وابن العميد، وأفرزت هذه النقمة . ويسعى إلى الكشف عن موضوعية الكاتب في كتاب«أخلاق الوزيرين»، أو تعصبه لرأيه ،وما ينجم عنه من إغفال للجوانب المضيئة في حياة الوزيرين .

Abstract :

In this study, the researcher deals with the relationship between At-Tawhidi and political ruling authority represented by its figures with whom he was in contact. The researcher tries also to delve deeply to know the reasons which spoiled the writer's temper which made him not see any thing in his society but bad, unliked matters. Therefore, he decided to get back what he had given them from his compilations (books). The researcher focuses on Akhlaq Al- Wazerain book because it's known that it's the best book amongst the writer's where he poured all the dilapidations of an experience; the experience he witnessed while was on of the retinues of these two ministries: Assahib Ibn Abbad and Ibn Al-Ameed. Moreover, he poured in his book all the results of this resentment. The researcher, here, seeks to clarify or reveal

---

[*] بريد الباحث الإلكتروني :

the objectivity of the writer in Akhlaq Al- Wazerain or the fanaticism of his opinion which leads to his ignorance and negligence of the good sides of two ministers' life.

المقدمة:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على علاقة أبي حيان التوحيدي بالسلطة السياسية في العصر العباسي، والكشف عن الأسباب التي حالت دون اندماج التوحيدي في بنية الدولة، والأساليب التي اتّخذها في مهاجمة المتنفّذين .

فمن يقرأ أعمال التوحيدي يلمس دوراً كبيراً للسلطة في أعماله الأدبية ؛فقد عاش حياة بائسة، مهملة، وكان لأصحاب النفوذ دور كبير في امتدادها وتعمّقها، ولهذا وجدنا التوحيدي إما خائفاً وهو قريب منهم، وإما ناقماً وهو بعيد عنهم .

ومن مؤلفاته التي جاءت تتويجا لهذه الحالات النفسية :كتاب الإمتاع والمؤانسة، وكتاب أخلاق الوزيرين، وكتاب الإشارات الإلهية . وقد بدأتُ هذه الدراسة باستعراض أفقي، ثم أتبعته بوقفة متأنية عند كتاب «أخلاق الوزيرين» . ولم أكن معنياً بذكر كل شاردة وواردة، بل هدفت إلى تقديم صورة واضحة عن طبيعة العلاقة التي جمعته بالوزيرين «الصاحب بن عباد، وابن العميد، والأساليب التي اتبعها في جمع مادته عنهما، وبيان موضوعيته من عدمها .

ولم أكن أول مَنْ تحدّث عن التوحيدي، فثمة دراسات سابقة تناولت جوانب مهمة تتّصل به، لكنّي لم أجد دراسة تفرّدت لكتاب « أخلاق الوزيرين «، والدراسات السابقة هي:-

أبو حيان ـ أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء لزكريا إبراهيم: وتناول فيه المؤلف سيرة التوحيدي، ثم تحدث عن فقره، وشيوخه، وكان أهمهم السيرافي والرّماني، وأشار إلى أنّه تلقّى أصول الفلسفة، والمنطق، والطبيعيات، والإلهيات، والتصوف، والكلام، والفقه، والحديث، والنحو، واللغة على كبار علماء القرن الرابع، وتناول إنتاجه مستنداً إلى ما أورده ياقوت الحموي في معجم الأدباء ؛ إذ نصّ على وجود ثمانية عشر كتاباً، وكان حديثه عن الكتب التي وصلتنا منها حديثا أفقياً مقتضباً، ثمّ أفاض في الحديث عن فلسفة التوحيدي، وقسّمها إلى :فلسفة التوحيد، وفلسفة التساؤل، وفلسفة الإنسان، وفلسفة التشاؤم، وفلسفة الفكاهة، وفلسفة الفن .

ـ النثر الفني في القرن الرابع لزكي مبارك :وتناول فيه من جملة ما تناول أسرار عبقرية التوحيدي، ثم أسباب ثورته على الحياة والأحياء، واتصاله بالصاحب وخروجه عليه في ورقة واحدة، ثم أسباب إحراقه لكتبه في ورقة واحدة أيضا، وتناول فلسفته وأمورا أخرى تناولاً سريعاً.

ـ الأنظمة السيميائية ـ دراسة في السرد العربي القديم لهيثم سرحان: ومن بين ما قدّمه الباحث حديث عن مفهوم السلطة عند التوحيدي، ودوافع اللجوء إليها، وعلاقة التوحيدي بابن عباد، وابن سعدان وأبي الوفاء المهندس من خلال كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، ودفاعات التوحيدي في الكتاب نفسه، ثم تناول يأس التوحيدي وقنوطه .

وستضيف هذه الدراسة إلى ما قدّمه هيثم سرحان البحث في أسباب الموقف العدائي بين التوحيدي والسلطة السياسية، والكشف عن مظاهر نقمته على السلطة في أهمّ مؤلّفاته، وهي الإمتاع والمؤانسة، وأخلاق الوزيرين، والإشارات الإلهية، وانعكاس ذلك على الجانب الديني في كتاب المقابسات، وستهتمّ بكتاب أخلاق الوزيرين ؛ بوصفه أهم كتاب يتناول

علاقة التوحيدي بالسلطة من خلال مشاهدات الكاتب أثناء وجوده في بلاط الوزيرين، ومن خلال ما سمعه ممّن رأى الوزيرين، وأقام عندهما، وقد اعتمدت على الأسئلة التي وجّهها التوحيدي إلى هؤلاء ؛ إذ كانت تماثل الاستبيان الذي يوزّع على شرائح متنوعة من المجتمع في عصرنا الحاضر.

هذه أهم الدراسات التي تتصل بجوهر الموضوع، علماً بوجود دراسات أخرى تناولت جزئيات تتصل بحياة التوحيدي، أو ثقافته، ستظهر لاحقاً .

تمهيد

إن العلاقة بين المثقف والسلطة يشوبها الالتباس، ودائما يتبادر إلى الذهن، هل العمل في السياسة يورط الأديب، ويحرف الأدب عن غاياته،وأولها بثّ الجمال وإشاعة الوعي، ومقاومة القبح والتشوهات ؟ وهل السلطة السياسية قادرة على جعل الأدب ينبني على التبرير واليومي وتحوله إلى أداة وعي زائف؟ وهل الكتابة تقترن بالعبودية والذل والصغار كما قال الجاحظ: « لا يتقلدها إلا تابع، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم ... « (1)

إن الأدب لم يكن في عصر من العصور بعيداً عن السياسة، وما يتصل بها من نظرية الخلافة، وشرعية الحكم، وعلاقة الدولة بالأحزاب، وسياستها لرعيتها، وحروبها، وعلاقتها بما يجاورها. ولا نبالغ إذا قلنا إنّ الأدب مرآة العصور ولسان حالها، يكشف آمالها، وهمومها، ويبحث في فكرها الاجتماعي والسياسي، والديني، ويتجاوز ذلك ليبحث في أثر الثقافات الأخرى على العقل الإنساني والبنية الاجتماعية والمذهبية.

ومهما كان الأدب وجدانياً أو شخصياً فإنه لا ينعزل عن الحركات الفكرية والاجتماعية التي تنشأ في بيئة الأديب وتمس حياته. وليس الأديب دودة الحرير التي تنسج حول نفسها قبراً ترقد فيه. بل هو لوحة حساسة تحمل في جنباتها ما يحيط به من مؤثرات وتغيرات تختلط بذاته، ووجدانه، ثم تظهرها ثقافته رسوماً متنوعة الألوان والظلال(2).

ومن يقرأ التاريخ جيدا يلحظ أن ثمة مؤثرات كثيرة توجّه الأدب، وتتحكم في بعضه، فتلهو في كينونة البشر، وتتحكم في عقولهم، وقد توجه أقلامهم لخدمة سياستها، وقد تقصي بعضهم إن عضّوا على النواجذ، أو تقتلهم ليذهب أثرهم، فتنجح حينا، وتفشل إذا ما تسلل الأدب إلى العقول ووجد طريقه إليها.

قال سهل بن هارون بعد أن رأى مصرع بعض البرامكة أمامه:» والله ما أعلم أني عييت بجواب قط غير جواب الرشيد يومئذ، فما عولت في الشكر إلا على تقبيل باطن رجليه، ثم قال: اذهب فقد أحللتك محل يحيى ووهبتك ما ضمنته أبنيته. .. فاقبض الدواوين. .. فكنت كمن نشر عن كفن وأخرج من حبس. ..» (3)، ويشار إلى أنّ سهل بن هارون كان يقضى له بالحكمة قبل الخبرة، وبرقة الذهن قبل المخاطبة، وبدقة المذهب قبل الامتحان، وبالنبل قبل التكشف، فلم يمنعه ذلك أن يقول الحق «(4).

وفي المقابل فقد يكون كره السياسي أو الغني سببا في التعصب عليه، واتخاذ موقف سلبي منه، بصرف النظر عن المادة التي يقدمها، أو الأفكار التي يعرضها.

ورد في البيان والتبيين قول المؤلف:» لو أنّ رجلين خطبا أو تحدثا، أو احتجا أو وصفا وكان أحدهما جميلاً جليلاً بهيّاً، ولبّاساً نبيلاً، وذا حسب...، وكان الآخر قليلاً قميئاً، وباذّ الهيئة دميماً، وخامل الذكر مجهولاً، ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي وزن واحد من الصواب، لتصدّع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الدّميم على النبيل الجسيم، وللباذّ الهيئة على ذي الهيئة، ولشغلهم التعجّب منه عن مساواة صاحبه به، ولصار التّعجب منه سبباً للتّعجب به، ولصار الإكثار في شأنه علّة للإكثار في مدحه» (5).

ويبرر هذا الموقف بوجود رأي مسبق يوجّه الحكم النقدي .يقول: « لأنّ النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد. ..» ومصدر هذا الحكم مكانة الخليفة أو الوزير في النفوس، وقد نلمس مبالغة في الحكم اعتماداً على هذه المكانة. « وإذا كان الخليفة بليغاً والسيّد خطيباً، فإنّك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين: إما رجلاً يعطي كلامهما من التعظيم والتفضيل، والإكبار والتبجيل، على قدر حالهما في نفسه، وموقعهما من قلبه ؛وإما رجلا تعرض له التهمة لنفسه فيهما، والخوف من أن يكون تعظيمه لهما يوهمه من صواب قولهما، وبلاغة كلامهما، ما ليس عندهما، حتى يفرط في الإشفاق، ويسرف في التهمة «.(6)

وقد حرص كثير من الكتاب على إرضاء أصحاب السلطة ما استطاعوا، فوضعوا بين أيديهم نصائح كثيرة تتصل بعقول الناس وتفكيرهم ورغباتهم ومطامعهم، ومن ذلك قول عمرو ابن مسعدة الذي عاش حياته مع أهل السلطة والقرار: «لا تصاحب مَنْ يكون استمتاعه بمالك وجاهك أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه، وفوائد علمه. ومَنْ كانت غايتُه الاحتيال على مالك، وإطراءك في وجهك فإنّ هذا لا يكون إلا رديّ الغيب، سريعا إلى الذّم «(7).

وقال سهل بن هارون في نصائحه: «التَّوقي مِنَ الدواء أشدُّ من الداء «(8). و « العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم «(9)، وكان شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة. يقول: « لم أر أنطَق من المأمون أمير المؤمنين «(10).

وكانوا يحاورون الخلفاء ويدخلون معهم في جدل معرفي، ويستمعون إلى رأيهم في العلوم والآداب التي يعنى بها أهل السياسة، ومما ورد عن المأمون أنّه صنّف العلوم على النحو الآتي :علم الملوك: النّسب، والخبر، وجمل الفقه. وعلم التجار: الحساب، والكتاب. وعلم أصحاب الحرب: درس المغازي، وكتب السير. .

وقد ذكر الثعالبي أنّ الأدب ينقسم إلى قسمين، هما: أدب الشريعة وأدب السياسة ؛فأدب الشريعة ما أدى الفرض، وأدب السياسة ما عمّر الأرض. وكلاهما يرجع إلى العدل الذي به سلامة السلطان وعمارة البلدان وصلاح الرعية (11)

أبو حيان التوحيدي وموقفه من المجتمع والسلطة :

يفرّق الدارسون بين الأدباء الفلاسفة والفلاسفة الأدباء؛ لأن الفئة الأولى متأدبة بالجوهر، ومتفلسفة بالعرض، والثانية متفلسفة بالجوهر ومتأدبة بالعرض(12) وأبو حيان يجمع بين الصنفين، في قرن نضجت فيه العلوم وتطورت، وزاد الاهتمام بالترجمة والتعريب، وقد حاول أن يمزج الثقافة بالأدب مستعينا بالتراث اليوناني. وهذا ما دفع ياقوت الحموي ليقول فيه: « فهو شيخ في الصوفية، وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام، ومتكلم المحققين، وإمام البلغاء... فرد الدنيا الذي لا نظير له، ذكاء، وفطنة، ومكنة، كثير تحصيل العلوم في كل فن. .. واسع الدراية والرواية. ...» (13).

وعلى الرغم من هذه الثقافة التي جعلته فرد الدنيا - كما وصفه ياقوت - إلّا أن أهل زمانه أنكروه، وعابوا عليه سعيه في البحث عن مكانة تليق بإمكاناته، وأبعد من ذلك ما أورده ياقوت الحموي في موطن آخر حين قال: « ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا دَمَجه في ضمن خطاب. ..» (14).

طرق أبواب الأمراء والوزراء والأغنياء فأوصدوا الباب دونه، أو كلّفوه بما لا طاقة له به، أو احتقروه، وامتهنوا كرامته، ولنا في هذه الحادثة خير شاهد ؛ إذ يروى أنه همّ بالوقوف حين قدم الوزير ابن عباد احتراما وتقديرا، فصرخ في وجهه،وقال: « اقعد فالوراقون أخسّ من أن يقوموا لنا»(15).فعاش يشكو صروف زمانه، ويبكي في تصانيفه على حرمانه(16).

ورد في الإشارات الإلهيه قوله: «يا أحبابي! إذا قرأتم كتابي فتفضلوا عليّ بجوابي، فلعلّي أداوي بكتابكم ما بقي. فقد نفّست بالعراء: أرتاع لطنين الذبابة، وأهيم من حسن ذوي الصبابة. فحالي من الأحوال عجيبة، وهمتي في الهمم غريبة...فيا سادتي !بالذي خصّكم بالفضل، وأهّلكم للإفضال،. ..إلا رفقتم لي. ..فقد طال عطشي، واشتد دهشي، من كلم دام، وسرّ سام، وبيت طفئ مصباحه، وباب ضاع مفتاحه... اللهمّ إنّي كتبت هذه الكلمات إلى أشخاص أنشأتهم بين عبادك، واختصصتهم بلطائف هدايتك. ..ليهبوا إلي من فضلك ما وهبتهم، ويمنّوا عليّ من بعض ما مننت عليهم، وليس مسألتي إياهم لليأس منك. ...» (17)

ولم يكن يسلم من عين تترقبه وتتندر منه؛ ورد على لسانه أنَّه حضر مائدة الصاحب ابن عباد، فقدّمت مضيرة فأمعن فيها. فقال له الصاحب: يا أبا حيان، إنّها تضرّ بالمشايخ. فردّ عليه: إن رأى الصاحب أن يدع التطبب على طعامه فعل، فسكت الوزير وكأنه ألقم حجراً ولم ينطق إلى أن فرغوا . (18)

وفي هذه الحادثة التي يرويها التوحيدي نفسه تتكشف لنا محاولة الكاتب الاستسعاد بفكرة البؤس؛ ليظهر نفسه أقوى من هذه المواقف، على الرغم من الامتهان الذي تعرّض له، وفي هذا مكابرة آنية، تنذر بتحول الكاتب إلى عيّاب جعجاع، حين يجد الوقت والمكان الملائمين. (19)وهذا ما حدث واقعا في كتاب «أخلاق الوزيرين» .

وتوالت الصدمات التي كشفت حقيقة العلاقة التي ربطته بمجتمعه، فأيقن باستحالة المصالحة، فقرّر أن يهدم ذاته التي نسجها في مصنّفاته، أو إنْ جاز التعبير قطع الخيط الذهني الذي يربطه بزمانه، أو كما يسميه بعضهم (الانتحار الثقافي)؛ (20)بإطعام كتبه للنار، فوجدناه يحرقها ويذروها في سماء كانت شاهداً على حرمانه وأرقه في ليالي الجوع والحزن.

وفي ذلك يقول: « على أنّي جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرّياسة بينهم، ولمدّ الجاه عندهم، فحرمت ذلك كلّه... فشقّ عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنّسون عرضي إذا نظروا فيها،... ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها... وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة ،فما صحّ لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشّهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفّف الفاضح عند الخاصّة والعامّة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحرّ أن يرسمه بالقلم ويطرح في قلب صاحبه الألم. ..» (21)

وهذه صراحة ندر أن نجد لها مثيلا، فأبو حيان لم يتورّع من ذكر الحالة السفولية التي وصل إليها، فجعلته يبيع دينه ومروءته، ويتعاطى الرياء والنفاق.وهذا يفسر تحامل الجاحظ على فئة الكتّاب ووصفهم بالخائنين، والمتشدقين، والسفهاء، والأنذال، والوضعاء، والزنادقة، والوشائين، والظالمين، والمأفونين، والشرهين، والقوادين. (22). وعلّق زكي مبارك على سلوك التوحيدي هذا ذاكرا أنه رجل يعي معنى الضمير، ومتانة الخلق، والكرامة، ومدلول الرياء، ولكنّ الحياة القاسية قهرته وجعلته يمشي فوق الأشواك،أشواك التملق والمداهنة والرياء، فمشى مجروح الفؤاد، مقتول النفس، مطعون الوجدان، وكان اقترافه للهوان والصغار سبباً في ثورة الحقد على الرؤساء الذين لا ينال من فيض ما لديهم بغير أسباب الخسّة والدناءة والانحدار(23).

ولم يكن ليقدم على قراره بإحراق كتبه لو بقي عنده شيء من الرغبة في الحياة، فقد ناف عن التسعين وعذّبه العجز والظلم. يقول: «فإنّي في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة، أو

رجاء لحال جديدة، ألست من زمرة من قال القائل فيهم:

نروح ونغدو كلّ يوم وليلة
وعمّا قليل لا نروح ولا نغدو(24)

ويعزي نفسه بتجارب غيره من العلماء والأدباء ممن أقدموا على إحراق كتبهم، أو دفنها أو رميها أو تمزيقها حين أيقنوا أن مجتمعاتهم لا تستحقها، ومنهم أبو عمرو بن العلاء، وكان عالماً وزاهداً. أقدم على دفن كتبه في الأرض، وما عاد لها أثر، وكذلك داود الطائي الذي كان يقال له تاج الأمة ؛بسبب زهده وورعه. طرح كتبه في البحر وأخذ يناجيها: «نعم الدليل كنت. ..» وهذا يوسف بن أسباط أودع كتبه في غار وسدّ بابه، وهذا أبو سليمان الداراني ألقى كتبه في تنور، ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك «، وهذا سفيان الثوري مزّق كتبه وطيّرها في الريح، وقال: «ليت يدي قطعت من ها هنا بل من ها هنا ولم أكتب حرفا»، وهذا أبو سعيد السيرافي سيّد العلماء، يقول لولده: « قد تركت لك هذه الكتب يكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار.... (25) «.

إنّ ما بدر عن التوحيدي وغيره ممن ورد ذكرهم يجسّد موقف المثقّف من الحياة والمجتمع والسلطة، ويقدّم صورة الإحباط التي مني بها في خطابه معها، ويوضح موقف السلطة من المثقّف الذي لا ينتمي إلى فكرها السياسي، أو لا يحسن الاندماج مع مؤسساتها(26).

وإذا اعتبر «فعل الإحراق جريمة فكرية فإن هذه الجريمة، كما يعبّر الروائي ألبير كامو في كتابه «الإنسان المتمرد»، قد ارتكبت استنادا إلى محاكمات عقلية ؛ لأن هذه « الجريمة « تمثّل ردّا منطقيّا على فساد القيم وسقوط الأخلاق وغياب الحقيقة. فعندما تضطر الظروف المثقّف إلى مقاساة العيش، ومواجهة الرذائل، وممارسة النفاق، فإنّ الحياة تكون غير جديرة بأن تعاش(27)، وهذا لا يعني بحال من الأحوال أن المثقّف مبرّأ من الدّنس، فقد يفوقهم فيما هم فيه.

والرهبة من السلطة عند التوحيدي والنقمة عليها يعدان من أهمّ دوافع الإبداع، فمما ورد عنه أنه ألف كتابه المشهور: « الإمتاع والمؤانسة « تحت تأثير سطوة الخوف من الوزير ابن سعدان؛ إذ يروى أنَّ أبا الوفاء المهندس كان صديقا للتوحيدي وللوزير أبي عبدالله العارض (ابن سعدان) فقرّب أبو الوفاء المهندس أبا حيان التوحيدي من الوزير حتى غدا الثاني من سُمَّاره، فسَامَره سبعاً وثلاثين ليلةً كان الوزير يحاوره فيها، ويوجّه إليه أسئلة في مسائل متنوعة، ثم طلب أبو الوفاء من التوحيدي أن يقصّ عليه ما دار بينه وبين الوزير، لكنّه رفض؛ حفاظا على هذه العلاقة التي ربطته بالوزير، وإيمانا منه أن المجالس بالأمانة. لكنّ أبا الوفاء ابتزه وذكّره أنه هو الذي أوصله إلى الوزير على الرغم من قبح هيئته، وسوء عادته، وحقارة لبسه، وهدّده إنْ لم يفعل أن ْيوقع به عقوبة، وينزل به أذى(28).يقول: « والعجب أنك ...قد بلغت الغاية وادع القلب ...وقد انقطعت حاجتك عنّي وعمن هو دوني ...وجهلت أنّ من قدر على وصولك يقدر على فصولك، وأنّ مَنْ صعد بك حين أراد، ينزل بك إذا شاء ...» (29)

ويضاف إلى هذا أن صديقه أبا الوفاء كان يعلم ما حدث معه عند الصاحب وابن العميد، فأجاب التوحيدي طلبه مرغما، لكنّه رجاه أن يحفظ الكتاب بعد تأليفه عن عيون الحاسدين؛ لأنه في حديثه مع الوزير عاب أشخاصا من رجالات الدولة. ومما ورد على لسانه: « وأنا أسألك ثانية على طريق التوكيد، كما سألتك على طريق الاقتراح، أنْ تكون هذه الرسالة مصونةً عن عيون الحاسدين العيابين، بعيدةً عن تناول أيدي المفسدين المنافسين، فليس كل قائل يسلم ولا كلّ سامع يُنصف « (30).

وما حدث مع التوحيدي في هذه التجربة يجسّد ما قاله الجاحظ عن الكتّاب تماما إذ «ليس للكاتب تقاضي فائتة إذا أبطأ، ولا التحول عن صاحبه إذا التوى .فأحكامه أحكام الأرقاء، ومحلّه من الخدمة محلّ الأغبياء »(31). وكأنّ الجاحظ يعلن الدعوة للخروج من فئة الكتاب الوضيعين، والالتحاق بركب العلماء الأجلاء ممن يمتلكون حرية على أقلامهم، وعقولهم(32).

لغة الخطاب مع أهل السلطة كما ينشدها التوحيدي:

طلب التوحيدي من الوزير ابن سعدان أن يعطيه حريّة في استخدام ضمير الخطاب الذي يريحه، ولا يثقل على عقله، واختار تاء المتكلم وكاف المخاطب؛ لتتسلسل المادة على لسانه، مبتعداً عن الكناية والتعريض ومتجاوزاً حجب الخوف.

وأجابه في طلبه، وعلّل الوزير ذلك بأنّ هذا الأسلوب لا ينقص من شأنه، فالذات الإلهية ترفع إليها الكاف والتاء، ولو كان في غيرها تقديس ورفعة لكان الله أولى بها، وذكر أيضا أن الأنبياء عليهم السلام والصحابة والتابعين لم يجدوا ضيرا في ذلك.

والسبب في هذا التعليل المفصّل أنّ الوزير لا يرغب في أن يظهر، وكأنه ينزل عند رغبة التوحيدي مُرغماً، أو أنَّه مضطر لمجاراته، وتنفيذ رغباته.

يقول التوحيدي: « يؤذن لي في كاف المخاطبة، وتاء المواجهة، حتّى أتخلص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض، وأركب جُدَدَ القول من غير تُقية ولا تحاش ولا محاوبة (33)،ولا انحياش(34) ، قال: لك ذلك، وأنت المأمون فيه، وكذلك غيرك،وما في كاف المخاطبة وتاء المواجهة ؟ إنّ الله تعالى ـ على علو شأنه، وبسطة ملكه، وقدرته على جميع خلقه ـ يواجه بالتّاء والكاف، ولو كان في الكناية بالهاء رفعةٌ وجلالةٌ وقدر ورتبة وتقديس وتمجيد لكان الله أحقّ بذلك ومقدّما فيه، وكذلك رسوله –صلى الله عليه وسلم –والأنبياء قبله– عليهم السلام – وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ والتابعون لهم بإحسان –رحمة الله عليهم ـ وهكذا الخلفاء، فقد كان يقال للخليفة: يا أمير المؤمنين، أعزّك الله، ويا عمر، أصلحك الله؛ وما عاب هذا أحد، وما أنف منه حسيبٌ ولا نسيب، ولا أباه كبيرٌ ولا شريف... هيهات، لا تكون الرياسة حتى تصفو من شوائب الخيلاء، ومن مقابح الزهو والكبرياء»(35).

وفي نهاية الأمر أبدع كتابا قال في وصفه القفطي:

« وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر، وغاص كل لجّة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخطّ أهل جزيرة صقلية وهو: ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً وتوسّطه محدّثاً، وختمه سائلاً ملحفاً «(36).

وألف كتاب أخلاق الوزيرين بعد أن سمع بأخبار ابن العميد والصَّاحب بن عَبَّاد، وما كانا عليه من نعيم ورخاء؛ إذ توجّه إليهما لعلّه يجد ما يقنع غلته ويطفئ صداه، لكنّه ألفى نقيض ذلك كلّه؛ إذ طلب منه ناظر خزانة الصَّاحب أن ينسخ عدداً من المجلدات بأمر من سيده، فدهش التَّوحيدي؛ وذكر أنه خرج من العراق متوجّها إلى الوزير الصاحب بن عباد ليتخلّص من شؤم حرفة الوراقة. لكنّ الوزير لم يكن ليرضى منه ما قاله، فقد كان يروى عنه أنه يرفض أن يعصى له أمر، فخشي التوحيدي على نفسه فرحل عنه ناقما. ولم تكن أيامه عند الصاحب بأفضل حالا من سابقتها عند ابن الوزير ابن العميد. وكان نتاج هذه التجربة تأليف كتاب « أخلاق الوزيرين « أو « مثالب الوزيرين» كما يسمّيه بعضهم(37)

وقد يكون سبب الخلاف الذي نشأ بينه وبين الوزيرين ابن العميد وابن عباد افتقاره حسن التصرف عندهما، بمعنى أنّه لم يكن يتحكّم في نفسه أحيانا(38).

مبرّرات اللجوء إلى السلطة من وجهة نظر التوحيدي:

لقد استطاع التوحيدي أن يُرَاكم مجموعةً من التصورات حول مفهوم السلطة(39) يظهر بينها تبايناً واضحاً، ومن ذلك أنّ الاقتراب من السلطة والبحث عن مكانة فيها أمرٌ محببٌ إلى النفوس جميعاً، ولا سيّما المحتاجة منها. يقول: « والمكانة عند الوزراء بكل حول وقوة مخطوبة، والدنيا حلوة خضرة وعذبة نضرة، ومن شفّ(40) أمله شقّ عمله، ومن اشتد إلحاحه، توالى غدوه ورواحه «(41)؛ لأن الإنسان كما يشير في موطن آخر بشر، وبنيته متهافتة، وطينته منتثرة، وله عادة طالبة، ونفس جموح وعين طموح.. (42).

ورأى في موطن ثان أنًّ سَفّ التّراب أهونُ على الأديب من الوقوف على أبواب السلطانَ(43)، وفهم في مكان ثالث أن الأدب باب من أبواب الرزق، وسبيل من سبل الغنى، ومن ذلك قوله: «على أنّي جمعت أكثرها للناس، ولطلب المثالة منهم، ولعقد الرياسة بينهم، ولمدّ الجاه عندهم، فحرمت ذلك كله... (44) «.ورأى في موطن رابع أن السلطة الدينية هي السلطة الوحيدة القادرة على حماية العالم من ظلم السلطان(45).يقول: «»وترك خدمة السلطان غير الممكنة ولا يستطاع إلا بدين متين، ورغبة في الآخرة شديدة، وفطام عن دار الدنيا صعب «(46)

إن هذه المواقف المفككة تكشف عن الصراع القاسي الذي عاشه التوحيدي في محاولة بلورة موقف واضح من علاقة الأدب والأدباء بالسلطة الحاكمة. وسأسلط الضوء على كتاب « أخلاق الوزيرين « لأتبيّن علاقته ببعض أهل السياسة والسلطان ممَّن اتصل بهم، ولأكشف عن موضوعية التوحيدي، أو تحامله، والوسائل التي اعتمدها في الحكم .

عنوان الكتاب

عنوان الكتاب في الأصل (المخطوط) كما ذكر محققه هو: «أخلاق الصاحب وابن العميد». لكنّ بعض أهل زمانه سمّاه»مثالب الوزيرين»، أما المحقق فعدل عن الاسمين، وأطلق عليه: « أخلاق الوزيرين «، وقد ورد في «الإمتاع والمؤانسة» ما يؤيد ما ذهب إليه محقق الكتاب، قال أبو حيان: « إنّي أريد أن أسألك عن ابن عباد فقد انتجعته وخبرته وحضرت مجلسه... على أنّي عملت رسالة في أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسي الغزير، ولفظي الطويل والقصير، وهي في المسوّدة ولا جسارة لي على تحريرها ؛فإنّ جانبه مهيب ولمكره دبيب «، وورد في سؤاله لأبي سعيد الأبهري(47): «بيّن لي أمر هذا الرجل، ففي نفسي أن أعمل كتاباً في أخلاقه...» (48)

وحينما نقل ياقوت الحموي عن هذا الكتاب أورده بأسماء مختلفة،. فقد ذكر المحقق أنه ورد باسم «أخلاق الوزيرين « في أربعة مواضع، وباسم كتاب «الوزيرين « في ثمانية مواضع، وباسم «مثالب» في موضع واحد، وباسم « ذم الوزيرين « في موضع واحد ؛ علما أنه لم يرد عن ياقوت الحموي أنه ذكر أن أبا حيان قد سمّى كتابه بهذه الأسماء جميعا، ويبدو أن ياقوت إما أنه كان يجيز التصرّف في أسماء الكتب وفي تراثنا من يجيز ذلك، فقد ورد عن محمد بن عبدالباقي: « إن الراجح لديهم جواز التصرف في أسماء الأعلام للكتب والأشخاص»(49)، أو لعله أراد أن يشير إلى اختلاف أهل زمانه في اسمه.

وكلمة أخلاق هي الأنسب لمادته التي ادّعى أنه سيعرضها؛ ذلك لأنه لن يقتصر في حديثه على المثالب، بل سيتوجّه للنظر في الفضائل أيضا ـ كما يزعم.. يقول: « ولست أسألك أن لا تذكر من حديثهما إلا ما كان خالبا لمقتهما، وداعيا إلى الزراية عليهما، وباعثا على سوء القول والاعتقاد فيهما، بل تضيف إلى ذلك ما قد شاع لهما وشهر عنهما، من فضائل لم

يثلثهما فيها أحد في زمانهما. ...»(50)

مصادر التوحيدي في حديثه عن الوزيرين ومبرراته في ذمهما:

استطاع التوحيدي في كتابه هذا أن يتحرر من الموقع الدوني الذي يفرضه المملي، صاحب زمام الخطاب، وناصية الكلام، في محاولة منه للبحث عن نمط بديل للحياة، وربّما استراحة قصيرة من عناء الحصر النفسي والهامشية. (51)»

أما مصادره فهي:

أولاً: معرفته بهما مشاهدة وصحبة.

ثانيا: السماع والرواية من البطانة والحاشية والندماء وذوي الملابسة. (52)

يقول: «وزعمت أنّي قد خبرت هذين الرجلين من غمار الباقين، ووقفت على شأنهما، واستبنت دخائلهما، وعرفت خوافي أحوالهما، وغرائب مذاهبهما وأخلاقهما. ولعمري قد كان أكثر ذاك، إما بالمشاهدة والصحب وإما بالسماع والرواية ...»

وحرص في ذلك كلّه على إقامة الحجّة والدليل عليهما حتّى لا يبدو مفتريا .يقول: « وإذا احتججت بالعيان في وصف هذين الرجلين في الكرم واللؤم فقد رفعت المِرْية، وإذا أقمت الشاهد على الدعوى فقد منعت من اللائمة... (53)».

وعليه فيمكن أنْ نقولَ: إنَّ جنس هذا الكتاب هو أقرب إلى السير الغيرية من غيرها .

أما مبرراته فأهمها:

أولاً: أن مدح المحسن وذم المسيء أمر اجتماعي مألوف، وقد اتّخذ من الجاحظ في علاقاته نموذجا. يقول : «هذا عمرو بن بحر أبو عثمان،وهو واحد الدنيا، كتب رسالة طويلة في ذمّ أخلاق محمد بن الجهم(54) ومدح أخلاق ابن أبي داود.(55) وإذا لم يكن عليه لوم في مدح المحسن إليه، فكذلك لا عتب عليه في ذمّ المسيء إليه. ..وأفاد أبو عثمان في رسالته فوائد لا يخفى مكانها على قارئها»(56).

ويستحضر ذمّ أبي العيناء للوزير عيسى بن فرخانشاه بعد أن عزل عن الوزارة؛ إذ قال: الحمد لله الذي أذلّ عزّتك، وأذهب سطوتك، وأزال مقدرتك، وأعادك ومنزلتك، فلئن أخطأت فيك النعمة، لقد أصابت منك النقمة، ولئن أساءت الأيام بإقبالها عليك، لقد أحسنت بإدبارها عنك؛ فلا أنفذ الله لك أمراً، ولا رفع لك قدراً، ولا أعلى لك ذكراً. (57) «.

ثانيا: أنّ الدين لا يؤاخذ على ذكر المنافق بسوء؛ إذ لا غيبة لمنافق، ويستشهد ببعض الأحاديث النبوية الشريفة. يقول: «لا غيبة لهم، أو في غيبتهم أجر، وقد وقع في الخبر عن النبي- صلى الله عليه وسلم-: «اذكروا الفاسق بما فيه كي تحذره الناس «، وقال نقلاً عن برهان الصوفي: ذمّ بشر الحافي بخيلاً ثم قال: إن البخيل لا غيبة له، قيل: وكيف ؟ قال: لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بني سلمة من سيدكم ؟ قالوا: الجَدُّ بن قيس على بخل فيه، قال: « فأي داء أدوى من البخل «.(58)

لقد كانت سلطة التوحيدي على نصّ الكتاب سلطة مطلقة؛ لأنّه خرج من بلاط الوزيرين، وتحرّر من رغبة أو رهبة .فالعلاقة بين المتنافسين على النصّ هي التي توجّه الأديب، أو تكبح جماحه. لأنّ كلّ نصّ يدور بين أطراف ثلاثة، هي: المبدع،والعامة،

والحاكم. والمبدع يطمح في الغالب إلى الاستظلال بظل الحاكم؛ ليتوجه ببضاعته إلى سوقه.(59) ؛ لأن السلطان، كما يرى الجاحظ، سوق، وإنما يجلب إلى كل سوق ما ينفق فيها، وأهون الكتاب أقربهم من الخليفة .(60)

وسائله:

أولاً: يعتمد التوحيدي في سرده على إنطاق الشخوص، إنطاقا يحمل في المواطن كلّها عداوة ظاهرة، تخالف إدعاءه بالموضوعية والنزاهة، فهو، كما هو واضح في كتابه، مُمسك بعنان الخطاب ؛ ينطلق السؤال من جعبته إلى شخوص على عداء مع الوزيرين، كما أنّه هو الذي يختار الزمان والمكان .

ومما ورد قوله: «وقلت للمسيبي: ما قولك في ابن عباد ؟ فقال: له في الخلاعة قرآن معجز، وفي الرَّقاعة آيةٌ منزلة، وفي الحسد عرق ضارب، وفي الكذب عار لازب؛ لا ينزع عن المساوي إلا مللاً، ولا يأتي الخير إلا كسلاً؛ ظاهره ضلالة، وباطنه جهالة، وليس له في الكرم دلالة ...» (61)

فقد جمع فيه المساوئ التي ينفر منها كلّ عاقل ؛ فابن عبّاد كتاب يحوي أصناف الخلاعة والمجون، وطباعه مجبولة على الحسد والكذب، لا يترك المساوئ إلا من باب تجنّب الملل، والرغبة في التغيير، ثمّ يعود إلى سابق عهده، وإن همّ بفعل الخير تكاسل . في ظاهره الضّلال، وفي باطنه الجهل، أما الكرم فليس في سيرته ما يدلّ عليه .

«وقلت لأبي السلم نجبة بن علي (القحطاني الشاعر): قد لقيت ابن العميد، وها أنت تشاهد ابن عباد، فصفهما لي؛ فإنّك رجل بدوي، وتنظر إلى كل شيء بفطرتك...فقال: أما ابن العميد - يعني أبا الفضل - فكان بحره لا يُنزف ...وأديمُه لا يُعرك، على بخل كان به أحال نهاره ليلاً... (62)» .

فكما هو ظاهر فصورة ابن العميد عند هذا البدويّ، لا تختلف عن صورة ابن عبّاد عند الشاعر القحطاني، فكلاهما بخيل، لا يؤمّل منه أيّ خير.

وقد يوجه أبو حيّان سؤاله إلى لصوص ومنافقين يعترفون بلصوصيتهم ونفاقهم، ومع هذا يأخذ برأيهم ويعتمد مادتهم .يقول: « وكان الأقطع المنشد الكوفي يقول كثيرا: لو لم يستدل على جنون هذا الرجل وقلة دينه وضعف عقله إلا بنفاقي عليه لكفى؛ لأنّي رجل قطعت في اللصوصية (63)،والكوفيّ كان من رجال ابن عباد.

ومن الغريب أن التوحيدي يمدح هذا اللص على الرغم من اعترافاته، ويقول فيه: « وكان هذا، مع ما وصفناه، طيّبا مليحا نظيفا فصيحا(64)» . وليس لهذا سوى تفسير واحد وهو أن التوحيدي كان يهدف إلى تسويغ المادّة التي أخذها من هذا المنافق.

ثانياً: كان يستعين كثيراً بالشواهد الشعرية في إطار مهاجمته للوزيرين؛ ليؤكد إجماعا حول الصفات التي يذكرها لهما، وليقول: إن اسميهما ذاعا على كل لسان. ومن ذلك قوله: « وقلت للزعفراني الشاعر وكان من أهل بغداد: اصدقني أيها الشيخ عن هذا الإنسان(ويقصد الصاحب)، كيف وجدّته في طول ما عجمت عوده، وتصفحت أخلاقه وخبرت دخلته. فقال: كليل الكرم، حادّ اللؤم، رقيع الظاهر، مريب الباطن ... لعن الله الفقر فهو الذي يحيل المروءة، ويقدح في الديانة ...وأنشد:

...

والرزقُ يخطئ بابَ عاقِل قومه
ويبيت بَوّاباً لباب الأحمقِ(65)

وأورد في ابن العميد أبياتا كثيرة منها:

وإذا استهل ابن العميد،
..."تضاءلت ديم القطار
خرق صفت أخلاقه صفر السبيك من النُّضار

ولعلّ موضوع المال من بين الموضوعات الأكثر

حضوراً، وممّا ذكره أن عطاء ابن عباد لا يمكن أنْ يزيد على مئة درهم وثوب إلا في حالات نادرة (66)

وعلّق زكي مبارك على الموضوع في قوله: « ولن تجده في صميم أدبه إلا رَعداً يزمجر كلّما مرّ بباله خاطر الغنى والفقر، والنعيم والبؤس، والنباهة والخمول(67)

ثالثاً: كان يلجأ إلى أسلوب الإيهام حتى يداري نقمته، ويؤكّد صحّة دعواه.يقول: « ولقد قلت للخوارزمي سيئ الرأي في ابن عباد مع ما يصل إليه منه،فما السبب؟ فقال: ابن عباد سيئ السياسة لصنائعه؛ وذلك أنه يعطي الإنسان عطية ما، ثم يبلوه بجفاء يتمنى معه لقط النوى... «(68)

وبما أن هذا الرجل كان ناقماً على الوزير، فالأحرى بالتوحيدي أن يتجنب الأخذ برأيه.

وكان يورد الرأي في غير رواية. قال ابن عباد لابن الزيات في مناظرة: « لا تعبث بلحيتك.

فقال ابن الزيات: وما عليك منها؟ هي لحيتي .

قال: أنا سلطان.

قال: أفي عهدك النظر في لحيتي ؟

قال أصحابنا: بل قال له: أنا سلطان .... (69)

رابعاً: عمد التوحيدي إلى تأكيد الرأي بتكرار السؤال لنجد تكراراً في الإجابة، ويلاحظ أنه يعرّف بالشخصية التي يوجّه لها السؤال ليضفي على الأمر واقعية(70)، ومن الأمور التي أكّدها في غير موضع اتّهام ابن عباد بالجنون(71) وهذا اتهام نجده يتكرر في الإمتاع والمؤانسة أيضا، ومن ذلك أنه سأل ابن عبيد الكاتب عن ابن عبّاد في كتابته فأجابه أنّه يرتفع عن المتعلّمين بدرجة أو درجتين، وأورد على لسان علي بن القاسم أن ابن عبّاد مجنون الكلام، فتارة يبدو ببلاغة قسّ، وتارة يظهر بعيّ باقل(72).

خامساً: كان يعمد في مواطن كثيرة إلى الاستئناس برأي الجماعة في الوزيرين، ومما كتبه قوله: «وقد سألت جماعة من سادة الناس عنه، وحصلت من كلّ واحد منهم جوابا يمرّ بك فيما تستقبل، وأذكر ها هنا أشياء حدثني بها بطانته وخدمه ... (73) «

«قلت لأبي عبيد الكاتب النصراني ببغداد، وكان سهل البلاغة، حلو اللفظ، حسن الإقضاب، غريب الإشارة، مليح الفصل والوصل: كيف ترى كتابة ابن عباد ؟.... (74)

سادساً: لم ينس أساتذة الصاحب وابن العميد، واتهمهم بالفسق والفجور؛ ليشكك في مصادر ثقافتهما، وينفي أي أمل بصلاحهما. يقول: « أما ترى اللعب، والمزاح والسفه والقحة والتجليح(75) والفسق والفجور فاشية منهم، وغالبة عليهم، وظاهرة بينهم؟...»(76) ويذكر أن الوزيرين يتركان المعارف السامية ويتعلمان كلام المكدّين، ومناغاة الشحادين، وعبارات المقامرين(77).

وكان في بعض المواضع يوازي بين الوزيرين، فيظن القارئ أنه سيقول شيئا يمدح أحدهما فيه، وإذا به ينفي عن كليهما أية فضيلة. ورد في حواره لأبي السلم الشاعر القحطاني قوله: « أين ابن عباد من ابن العميد ؟ فقد زرتهما ... فقال: كان ابن العميد أعقل، وكان يدّعي الكرم، وابن عباد أكرم، وهو يدّعي العقل ؛وهما في دعوييهما كاذبان وعلى سجيتهما جاريان؟»(78)

سابعاً: بذل جهداً كبيراً في جمع الكلمات النابية، المبتذلة(79) ولم يكن يتورّع في سرد المواقف والأحداث المحرجة، ومن ذلك ادعاؤه أن ابن عباد كان يبزق في الجو في المكان الذي يجلس فيه(80).

ثامناً: لم يجد حرجا في الخوض في الموضوع الديني، فمعركته مع الوزيرين طالت كل شيء، وأساءت من

حيث يدري أو لا يدري(81)، وأحياناً يظهر تحاملاً على بعض الصحابة، منهم أبو بكر، فقد جعل وصوله إلى الخلافة على لسان بعض الحاضرين فلتة(82)، وأساء إلى عائشة رضي الله عنها(83)

وقد يكون ما أورده في هذا الكتاب وفي غيره سببا في رميه بالزندقة. فقد ورد عن أبي الفرج بن الجوزي في تاريخه قوله: « زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الراوندي وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء، وأشدهم على الإسلام أبو حيان؛ لأنه مَجْمَجَ ولم يُصَرِّح(84)

وقد يكون السبب في هذه التهمة ذلك الكتاب الذي ألفه باسم «الحجج العقلي» وقد أظهر فيه بعض الآراء الصوفية التي تتنافى ـ في الظاهر ـ مع قواعد الإسلام(85)

تاسعاً: استغل بعض المعارف الفلسفية ليكشف عن إلحاد الوزيرين .

يقول: «فقال ابن عباد: هاتوا مسألة أخرى،...أرجع بالفائدة...وعاد هذا الشيخ في مجلس آخر، فقال له: أتقول إن الله جسم؟

قال: نعم. قال: فإذا كان الله جسما جاز أن يكون فوق شيء أو تحته، أو عن يمينه شيء، أو عن يساره شيء. قال: نعم. قال: فما تنكر أن يكون معبودك الآن في هذا الصندوق ...؟ قال: فما تنكر أن يكون هذا الحمار ينعط، فيحل الله كلامه في جردانه، فيقول: أنا ربكم الأعلى ... (86) «

و» قال صاحب الجواليقي لصاحب هشام: صف لي ربّك الذي تعبده، فوصفه، فقال: في وصفه هو جسم ولكن لا يد له ولا جارية ولا آلة»(87).

ويلاحظ أن التوحيدي يركّز على العقل في قضايا كثيرة وينسى الحسّ حتى في تصوّره لنعيم الجنة، علما أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى الملذات الحسيّة اهتماماً واضحاً، وجعلها من الأمور التي يسعى إليها المؤمنون(88).

ورد في كتاب المقابسات قوله: « ما أعجب أمر أهل الجنة! قال: لأنهم يبقون أبداً هناك، لا عمل لهم إلا الأكل والشرب والنكاح، أما تضيق صدورهم ! أما يكلون، أما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التي هي مشاكلة الحال البهيمية؟ أما يأنفون، أما يضجرون؟(89) ويستعين فيما يعرضه أحياناً ببعض ما قرأه من مصنفات غيرعربية، ونجده يعرّف بأصحابها، ومن بينهم العالم إقليدس، فقد ذكر أنه أحد علماء الروم، وضع كتاباً فيه أشكال كثيرة تدلّ على حقائق الأشياء المعلومة والمغيّبة(90).

عاشراً: أكثر من الهزل والتهكم. قال: «حدثني العتابي قال: قال قوم من أهل أصفهان لابن عباد: لو كان القرآن مخلوقاً لجاز أن يموت، ولو مات القرآن في آخر شعبان، بماذا كنّا نصلّي التراويح في رمضان؟ فقال: لو مات القرآن كان رمضان أيضاً يموت، ويقول: لا حياة بعدك، ولا نصلّي التراويح، ونستريح.. (91).

ويثير أحياناً استفهاماً لا يحمل سوى التحقير، ومن ذلك قوله عن ابن عباد: « وأي عقل يكون لمن يقول ليس في الدولتين الأموية والعباسية مثلي(92) ؟». ويكثر من التعبير عن دهشته من أمره: « ومن العجيب أنه يدّعي العدل والتوحيد !» (93)

أحد عشر: نقل التوحيدي الوزيرين من دائرة مساءلة الحضور من العلماء إلى دائرة الإجابة عن أسئلتهم، وعليه فقد أخذ منهما زمام المبادرة ليضعهما في زاوية الدفاع عن النفس.

يقول: (94) «وسأله الدامغاني يوماً عن قوله عز وجل: ﴿ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربه﴾(95)

«وسئل ابن عباد(96) يوما عن قوله عزّ وجل: ﴿يرسل

عليكما شواظٌ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾(97).

وسأله الدامغاني(98) يوماً عن قوله تعالى: « ولما سكت عن موسى الغضب «(99) وأحياناً كان الوزيران يهربان من الإجابة بإثارة بعض الأسئلة.

اثنا عشر: أكثر من توظيف الأحاجي والألغاز والمعميات التي جعلها مادّة للكشف عن سطحية الوزيرين وجهلهما»(100) وحملهما مفردات وعبارات شعبية، ومنها قول ابن عباد للخادم: « إيش يمكنك أن تعمل» وتابع حركات الغرور الفارغ، وبخاصة عند ابن عباد. يقول: «وكان ابن عباد إذا تكلّم في مسألة ثم رأى في خصمه فتوراً نفش لحيته بأصابع يده، وعبث بها، وفتل رأسه، ولوى عنقه، وشنج أنفه، وعوج شدقه، وقال منشداً:

إذا المشكلات تصدّين لي
كشفت حقائقها بالنظرْ» (101)

ويشير إلى أن هذا الوزير كان يعيب هذه الأمور على غيره، ويوجّه الناس إلى السخرية من أصحابها (102).

وأخيراً ختم كتابه بدعاء يصون وجهه من سؤال شرار الخلق حتى لا يجد نفسه مضطراً لشكرهم ومديحهم: « اللهمّ صن وجوهنا باليَّسار، ولا تَبْتَذِلها بالإقتار فنسترزق أهل رزقك، ونسأل شرارَ خلقك، فنبتلى بحمد مَنْ أعطى وذَمّ مَنْ منع، وأنت من دونهما وليّ الإعطاء، وبيدك خزائنُ الأرض والسماء يا ذا الجلال والإكرام»(103).

الخاتمة

بدا واضحا أنّ أبا حيان التوحيدي مثّقف ثقافة واسعة، شهد بها أعلام عصره، وبعض من لحق به، لكنّه بالرغم من إمكاناته المعرفية قد فشل في إقامة جسر مع أبناء مجتمعه، وفي تسويق أدبه عند الخاصة، ولهذا ظلّ يلهث طوال حياته باحثا عن ذاته الضائعة، ورفض أن يحمّل نفسه شيئا من المسؤوليّة، وأصرّ على أن يظهر ضحيّة.

ولا شكّ أنّ انعكاس هذا الشعور بدا واضحا تماما في معظم مؤلّفاته ؛ فهو في الإشارات الإلهيّة يشكو إلى الله سبحانه وتعالى سوء حاله، ويتضرّع إليه طالبا الرحمة، وفي كتابه الإمتاع والمؤانسة يبحث عن كل ما يسرّ الوزير ابن سعدان لعلّه يجد عنده ما يخفّف عنه، أمّا في كتابه «أخلاق الوزيرين» فبدا أكثر نقمة على السلطة السّياسيّة ؛ولهذا لم يكن معنيّا بإظهار فضائل الوزيرين جنبا إلى المثالب، كما تعهّد، في الصفحات الأولى من كتابه، وقد بدا حنقه على الصاحب بن عباد أكبر من مثيله على ابن العميد، ولعلّ هذا سبب في استقصائه لجوانب حياة الأول، والوقوف على كلّ شاردة وواردة عنده. وقد وصل الأمر أن يخرجه من دائرة العقلاء(104)

وقد اعتنيت بكتاب أخلاق الوزيرين، وآثرت أن يكون النموذج الأوضح لإبراز لعلاقة بين التوحيدي والسلطة، وتبيّن أنّ صياغة الكتاب لا يهدف من ورائها إلى تصوير تجربة فنية للجمال والخير والحق في حياة مجتمع الكاتب، أو مجتمع آخر، ولا تأتي وفق أسس فنية، وانفعال عاطفي وجدانيّ منظّم وعميق، ولا تكشف عن تجارب الإنسان في الكون في صدق يتجلى فيه إخلاص الكاتب لعاطفته وتجربته الانفعالية ؛ليزيد من الوعي بالإنسان والحياة(105)، وإنّما جاءت، وفق قراءة عقلانية، مثقلة بعجز الكاتب أمام مجتمعه، ومحاولاته البائسة الخروج من تبعيّة

قاسية، باحثا عن نفسه وآماله.

وقد فشلت هذه الصياغة في إقامة جسر مع المتلقي المتذوق، وبقي النصّ يعاني من شخصية مؤلفه، وعاجزا عن تحقيق متعة فنيّة، أو إشباع معرفي، ولم ينجح الكاتب في ترك باب التفسير مفتوحا على القارئ لاستدعاء نصّ غائب. فكما هو معلوم فالنصّ الذي لا يلازمه التفكير بمتعلقات غائبة نصّ باهت وضعيف .

لقد انسابت أحقاد الكاتب من ذاكرته، فجاءت غير منسقة، تتزاحم فيها المواقف والمشاهد التي لا يجمع بينها سوى هدف واحد، وهو النيل من الوزيرين، ودائما يتجه إلى تقرير الظلم الذي توهّمه، أو وقع عليه فعلا،مدفوعا بروح تصفية الحساب السياسي.

الهوامش

(1) الجاحظ: رسائل الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب 190/ 2 .

(2) المقدسي، أنيس: الاتجاهت الأدبية في العالم العربي الحديث ص11 .

(3) الجاحظ: البيان والتبيين،ج1، ص89

(4) المصدر السابق، 1 /89 .

(5) الجاحظ :البيان والتبيين 89/ 1، 90.

(6) المصدر السابق 89/ 1، 90.

(7) المصدر السابق 267/ 3 .

(8) المصدر السابق 1/ 197

(9) المصدر السابق، 77/ 1

(10)المصدر السابق، 115/ 1.

(11) الثعالبي: رسائل الثعالبي، الكناية والتعريض، ص3.

(12) زكريا إبراهيم: أبو حيان التوحيدي، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص3.

(13) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 5/ 15، 6. وانظر أحمد أمين، مقدمة الهوامل والشوامل، ص: و.

وانظر الحديث عن ثقافته واطلاعه :إحسان عباس : أبو حيان التوحيدي، ص57.

(14) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 6/ 15

(15) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 26/ 1

(16) المصدر السابق15 / 5، 6 .

(17) التوحيدي: الإشارات الإلهية، ص 70، 71. وانظر: هيثم سرحان، الأنظمة السيميائية، ص236.

(18) ياقوت الحموي معجم الأدباء ، 15 / 7.

(19) انظر: إدوارد سعيد، صور المثقف، ص62.

(20) هيثم سرحان، الأنظمة السيميائية، ص236.

(21) ياقوت الحموي: معجم الأدباء 18/ 15 ،25 .

(22) انظر: رسائل الجاحظ، 2/ 189، 209. هيثم سرحان، ص 188 .

(23) زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، 2/ 165 .

(24) الحموي: معجم الأدباء، 20/ 15.

(25) الحموي : معجم الأدباء ، ص 21 وما بعدها.

(26) هيثم سرحان: الأنظمة السيميائية، ص 209، 210.

(27) المرجع السابق ، ص 239.

(28) التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة،1/ د وما بعدها.

(29) التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة،6/ 1.

(30) المصدر السابق، 1/ د- ع.

(31) الجاحظ: رسائل الجاحظ، 2/ 191 .

(32) هيثم سرحان، الأنظمة السيميائية، ص187.

(33) محاوبة: موارية.

(34) انحياش: انقباض .

(35) الإمتاع والمؤانسة، 20/ 1، 21 .

(36) القفطي: أخبار الحكماء، ص 283.

(37) الحموي :معجم الأدباء 26/ 15، زكي مبارك:

النثر الفني في القرن الرابع، 162 / 2. 163 .

(38) زكريا إبراهيم: أبو حيان التوحيدي، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، ص91.

(39) انظر وداد القاضي، علاقة المفكر بالسلطان السياسي أبي حيان التوحيدي، ص38 وما بعدها .

(40) شف: زاد .

(41) الإمتاع والمؤانسة، 13 / 1 .

(42) المصدر السابق، 14 / 1.

(43) المصدر السابق ، 3 / 212 .

(44) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 15 / 18 .

(45) انظر: الإمتاع والمؤانسة، 14 / 1، هيثم سرحان، ص 212.

(46) انظر: الإمتاع والمؤانسة، 14 / 1.

(47) التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص 318 .

(48) التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، 1 / 53، 54 .

(49) انظر التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص ي .

(50) المصدر السابق، ص 13 .

(51) إدوارد سعيد، ص67 .

(52) التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص9.

(53) المصدر السابق، ص93.

(54) كان من فلاسفة المتكلمين، عالما بالمنطق، منقطعا إلى دراسة كتب أرسطوطاليس في الكون والفساد والكيان وحدود المنطق، وكان طبيبا، وعالما بالتنجيم .اتصل بالمأمون فأجلّه .

انظر: التوحيدي: أخلاق الوزيرين ص42.

(55) هو أحد قضاة العصر .

انظر: التوحيدي، أخلاق الوزيرين، ص42.

(56) المصدر السابق، ص42 .44

(57) المصدر السابق، ص46.

(58) التوحيدي :أخلاق الوزيرين ، ص 44، 45.

(59) علي أومليل: السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ص101.

(60) الجاحظ: رسائل الجاحظ، رسالة ذم أخلاق الكتاب 2 / 206.

(61) التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص107.

(62) التوحيدي :أخلاق الوزيرين، ص282.

(63) المصدر السابق، ص184، 185.

(64) المصدر السابق، ص185.

(65) المصدر السابق، ص106.

(66): التوحيدي :أخلاق الوزيرين، ص193.

(67) زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، 2 / 161.

(68) التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص109.

(69) المصدر السابق، ص190.

(70) المصدر السابق، ص117، 282.

(71) المصدر السابق، ص287، 293 .

(72) التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة 61 / 1.

(73) التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص118.

(74) المصدر السابق، ص133

(75) الإقدام على الشر، المكابرة.

(76) التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص211

(77) المصدر السابق، ص185

(78) المصدر السابق، ص480 .

(79) التوحيدي :أخلاق الوزيرين، ص227، 228

(80) المصدر السابق،185 ، 190، 195

(81) المصدر السابق، ص232

(82) المصدر السابق، ص228

(83) المصدر السابق، ص297

(84) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج4، ص3.

(85) زكريا إبراهيم، ص43.

(86) التوحيدي: أخلاق الوزيرين ص230 .232 .

(87) التوحيدي :أخلاق الوزيرين ، ص233، وانظر موقفه من ابن العميد في ص284 .

(88) زكي مبارك 168 / 2 .

علما أنّ التوحيدي قد ذهب في مواطن أخرى . كما

رأى إحسان عباس ـ إلى أنّ العقل ناقص وعاجز عن إدراك حكمة الله ومقاصده .

انظر :إحسان عباس: أبو حيان التوحيدي وعلم الكلام، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية ج2، ص 191، وما بعدها.

(89) التوحيدي: المقابسات، ص86 .

(90) التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص236

(91) المصدر السابق، ص251، 252

(92) المصدر السابق، ص193

(93) المصدر السابق، ص194، 295، 316.

(94) التوحيدي :أخلاق الوزيرين، ص252 .

(95) سورة يوسف، آية(24).

(96) التوحيدي :أخلاق الوزيرين،ص253.

(97) سورة الرحمن، آية (35).

(98) التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص 276، 277.

(99) سورة الأعراف، آية 254.

(100) التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص269، 270، 482، 483، 484، 485، 486.

(101) المصدر السابق، ص 249، 250، ونسب البيت ايضا لعلي بن ابي طالب . انظر القالي، القالي 179 / 1، والزبيدي تاج العروس،مادة (أ مع)

(102) المصدر السابق، ص 249، 250.

(103) التوحيدي :أخلاق الوزيرين، ص 550

(104) التوحيدي :أخلاق الوزيرين، ص 482

(105) انظر: مفهوم التعبير الفني في: يوسف حسن نوفل: أصوات النص الشعري، ص2.

قائمة المصادر والمراجع:

ـ القرآن الكريم

ـ إبراهيم، زكريا: أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، الدار المصرية للتأليف والترجمة (د.ت).

ـ أمين، أحمد: مقدمة كتاب الهوامل والشوامل، نشره أحمد أمين، والسيد أحمد صقر، القاهرة، 1951.

ـ أومليل، علي: السلطة الثقافية والسلطة السياسية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1966.

ـ التوحيدي، أبو حيان: المقابسات، تح حسن السندوبي، ط1، منشورات دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة، تونس، 1991.

ـ الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان (د.ت).

ـ أخلاق الوزيرين «مثالب الوزيرين الصاحب بن عباد وابن العميد» تح محمد بن تاويت الطنجي .(د.ت)

ـ الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل ت(429هـ): رسائل الثعالبي أو نثر النظم وحل العقد، وبهامشه الفوائد والقلائد للثعالبي نفسه،قدم له علي الخاقاني، مكتبة دار البيان، بغداد، دار صعب، بيروت (د.ت).

ـ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: رسائل الجاحظ، تح عبدالسلام محمد هارون، مكتبة الخانجي،مصر، مكتبة المثنى، بغداد، 1965.

ـ البيان والتبيين.

ـ الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، ط3، منقحة ومصحّحة وفيها زيادات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1980.

ـ السبكي، تاج الدين تقي الدين: طبقات الشافعية

الكبرى، ط2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت،لبنان (د.ت) .

- سرحان، هيثم: الأنظمة السيميائية - دراسة في السرد العربي القديم، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008.

- عباس، إحسان: أبو حيان التوحيدي وعلم الكلام، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1966 .

- القاضي، وداد: علاقة المفكر بالسلطان السياسي: أبي حيان التوحيدي، شؤون عربية، وحدة المجلات في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، ع1، تونس، 1981 .

- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف: تاريخ الحكماء، وهو مختصر الزوزني المسمّى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المثنى، بغداد، مؤسسة الخانجي، مصر،(د.ت).

- مبارك، زكي: النثر الفني في القرن الرابع، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت (د.ت) .

- المقدسي، أنيس: الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، ط7، دار العلم للملايين، 1982.

- نوفل،يوسف حسن: أصوات النص الشعري، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، 1995